

"القول المأثور: أنا أفصح من نطق بالضاد..." حقيقته ومفهومه وأثره في الدرس اللغوي

د. منير تيسير شطناوي *

تاريخ القبول: ٢٠٠٩/١/٢٢

تاريخ تقديم البحث: ٢٠٠٨/٦/٣٠

ملخص

وقف بعض اللغويين من القدماء والمحدثين عند القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد". وبنوا عليه أحكاماً لغوية مختلفة. يتصل بعضها بفصاحة قريش، وبعضها بمعنى (بيد) في اللغة. ويرى الباحث أن هذا الخلاف محسوم؛ إذا حملنا الضاد في هذا القول على معناها الحقيقي لا المجازي، فالمقصود صوت الضاد في العربية لا العربية؛ ومعطيات هذا الحمل تتلخص في أن هذا القول ليس حديثاً نبوياً، فلا أصل له، كما إن العرف اللغوي لم يكن في زمنه صلى الله عليه وسلم قد جرى على معرفة العربية بلغة الضاد، وكذلك الحال حتى نهاية القرن الثاني الهجري. بالإضافة إلى أن صوت الضاد من الأصوات التي كان يتفاحص العرب في نطقها، ناهيك عن الخلاف في رواية هذا القول، والخلاف الذي تشكله "بيد" في فصاحة قريش إذا أخذنا للضاد على محمل العربية لغة لا صوتاً. وبدأ للباحث أن أول استخدام تداولي بوصف العربية بلغة الضاد جاء عند المتنبي (٣٥٤هـ)، ثم اختلط على اللغويين ما رواه المحدثون (أصحاب الغريب) عن النبي صلى الله عليه وسلم "أنا أفصح العرب، (أعربكم، أعرب العرب) بيد أني من قريش..." — بما ألفوه بعد قول المتنبي وشيوعه من معرفة العربية بلغة الضاد، وقوى من ذلك جواز رواية الحديث بالمعنى، وأرى أن الحذقة اللغوية، وما لصوت الضاد من تميز نطقي، جعلهم يتصرفون في النص، فاستخدموا لفظة "من نطق بالضاد" بدلاً من لفظة "العرب".

الكلمات الدالة: الضاد، قريش، الحديث، الأصوات، علم الأصوات.

Abstract

The popular saying: 'I am the most eloquent one who spoke Al- Dad : 'the concept, reality and effect of such saying

Many old and modern linguistics have studied the popular saying "I am the most eloquent one who spoke Al- Dad as I am from Kuraish and was breastfed in Bani Saed". They have analyzed such saying from different linguistic point of view, some of them quoted such saying when addressing the eloquence of Kuraish dialect, others quoted such saying when addressing the meaning of "Baid" in language.

The researcher sees that such a conflict can be resolved if we take the real, not the figurative meaning of "Dad". The intent here is the sound of Dad in Arabic, not the Arabic language. The basis of this claim is that such saying is not Hadith as it was not mentioned in al Sihah books. The linguistic tradition was not in the days of the prophet; this saying was not tracked until the second Hijri century, where Arabic was described as the language of Dad. Dad was one of the main linguistic sounds Arabs used to show their eloquence, indicating the dispute resulting from telling this saying and other disputes related to Baid in the eloquence of Kuraish if Dad is taken linguistically not phonetically.

It seems that the first time the label Arabic as a Dad-language was by Al-mutanabi (354 A.H) and then it was confusing for linguistics after Al-Hadith scholars narrated (I am the most eloquent amongst Arab "even the best of them" but I am from Quraish). This was confusing because of what scholars composed after what Al-Mutanabi said. The words of the Hadith were changed but with the same meaning. Accordingly, the expression "Dad" replaced the word "Arab".

Key Words: AL- Dad, Quaraysh, Hadeeth, Sounds, Phonetics.

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

مقدمة

لا ينفك بعض الباحثين والدارسين يستشهد بقول مأثور ذي صلة وثيقة بفهم معنى لفظة "بيد" في اللغة، فقد تناقل العلماء القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد"، ونُسب هذا القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما يدل ظاهره، فالنبي عليه السلام قرشي النسب، سعدى الموضع. يقول ابن مالك^(١):

"فقد ورد الحديث: 'أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش'، ألا ترى كيف افتخر صلى الله عليه وسلم بفصاحة النطق بها، وأثبتها لنفسه..." ويقول ابن هشام^(٢): "...ومنه الحديث 'أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد بن بكر'."

كما استدُل بهذا القول بعض العلماء على فصاحة قريش، وما نبؤ أنه اللهجة القرشية من مكانة لغوية بين قبائل العرب. واستدل به آخرون على فصاحة البادية العربية بدليل إرسال العرب أبناءهم إليها. وبالإضافة إلى ما سبق، صار هذا القول شاهداً يُستدل به على استخدام بعض ألفاظ العربية، وما تقضي إليه من معانٍ مختلفة، ومقاصد متعددة، ونعني بذلك كلمة "بيد".

وانطلاقاً من الأهمية التي حظي بها هذا القول المأثور، ارتأى الباحث مناقشته والوقوف على حقيقته متبعاً منهجية مرتكزة على ثلاثة محاور:

الأول: حقيقته، ومدى صحة نسبة هذا القول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والثاني: مفهومه، فكيف نفهم هذا القول انطلاقاً من تحديد مفهوم الضاد الذي ورد فيه؟

والثالث: أثره في الدرس اللغوي، وما لهذا القول من أثر عند القدماء والمحدثين في دراستهم اللغوية، وكيف فهم العلماء هذا القول في ضوء ما عرف عن قريش من فصاحة وبلاغة؟ وفيما يأتي تفصيل الحديث في هذه المحاور:

أولاً، حقيقته:

ثمّة روايات مختلفة يقترب بعضها من بعض في المعنى المقصود من هذه المقولة، وسأعرض لهذه الروايات قبل الوصول للحكم على رواية المقولة المأثورة عنوان الدراسة. ولعل أول رواية تطالعنا هي رواية أبي عبيد القاسم ابن سلام الهروي ولكن ليس بنص مقولة ابن مالك وابن هشام السابقتين. يقول أبو عبيد^(٣): "قال أبو عبيد: وأخبرني بعض الشاميين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: 'أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد'. وفسره: من أجل." وورد قريباً من رواية أبي عبيد عند ثعلب، يقول^(٤):

(١) ابن مالك، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن عبد الله بن محمد اللطائي، (٦٧٢هـ / ١٣٦١م)، الاعتماد في نظائر الطاء والضاد، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط ١٩٨٤/٢ ص ٢٤.

(٢) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري (٧٦١ / ١٣٦٠م)، مغني اللبيب عن كتب الأعريب تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت/ ١٩٩٥ ج ١ ص ١٣٣.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي (ت ٢٢٤هـ / ٨٣٩م)، غريب الحديث، ورجع الباحث إلى كتاب أبي عبيد في طبعين مختلفتين هما: الأولى، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت/ ١٩٧٦ ط ١ ج ١ ص ١٣٩، ١٤٠ والثانية: طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٦/١ ج ١ ص ٨٩ وقد وجدت فيها النص السابق عينه. وليس في الروايتين لفظة "الضاد".

(٤) ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٢٩١هـ / ٩٠٤م)، مجاز ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، النشرة الثانية/ ١٩٦٩ ص ١١.

"ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا أفصح العرب، أخوالي بني سعد، بيد أني من قريش" قال: بيد وميّد وغير بمعنى."

وروى أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي قريباً من الروايتين السابقتين، يقول^(١):
"...وفي الحديث "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش" أي غير أني من قريش، وقيل معناها: على أني من قريش."

ونحا نحو هذه الرواية (من غير أن يذكر الضاد) الزمخشري^(٢)، وابن الجوزي^(٣)، وابن الأثير^(٤)، والسيوطي^(٥). ووصف هذا النص بالغريبة، يقول ابن الملقن^(٦):

"حديث "أنا سيد ولد آدم" ويروى "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد، ولترتضعت في بني زهرة" غريب كله، وأما "أنا سيد ولد آدم" فوارد."

إلا أننا إذا تتبعنا آراء العلماء في المقولة الماثورة التي يرد فيها لفظ "الضاد"، نجد هذا القول غير ثابت النسبة إلى رسول الله عليه السلام كما نصّ بعض المحدثين. يقول ابن كثير^(٧): "وأما حديث "أنا أفصح من نطق بالضاد" فلا أصل له."

ويقول ابن الجزري^(٨): والحديث المشهور "أنا أفصح من نطق بالضاد" لا أصل له ولا يصح."

ويقول السخاوي^(٩): "أنا أفصح من نطق بالضاد، معناه صحيح ولكن لا أصل له كما قال ابن كثير."

(١) الهروي، أبو عبيد أحمد بن محمد بن عبد الرحمن (ت ٤٠١ هـ / ١٠١١ م) انغريبين، غريب القرآن والحديث، تحقيق محمود محمد الطنجاوي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٠ ج ١/ص ٢٣١.

(٢) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ / ١١٤٤ م) الفائق في غريب الحديث، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٩٦ ج ١/ص ١٢٦.

(٣) ابن الجوزي، جمال الدين الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد الجوزي الفقيه الحنبلي (٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) غريب الحديث، وثق أصوله وعلق عليه: عبد المعطي أمين قلمجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٩٨٥ ج ١/ص ٩٦.

(٤) ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات مبارك بن محمد، (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠١ م)، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق محمود الصنجاوي وطاهر الزاوي، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، المكتبة الإسلامية، ١٩٦٣ ج ١/ص ١٧١.

(٥) السيوطي، أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين ابن أبي بكر (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)، الجامع الصغير في أحاديث النبوة المشهور، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيشون، بيروت، ط ٢٠٠٢ م ج ١/١٦١ حديث رقم ٢٦٩٦ (أنا من قريش وأسمائي لسان بني سعد بن بكر).

وانظر حديث رقم ٢٦٨٤ ص ١٦٠ من الجزء نفسه: "...أنا أعرب العرب، ولدتني قريش ونشأت في بني سعد بن بكر، فأني بآئتي اللحن". وانظر كتابه: عقود الزهرج في إعراب الحديث، تحقيق سلمان القضاء، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٤ ج ٣/٢٧٨ حديث رقم ١٧١١ "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش". وانظر كتابه: المزهري في علوم اللغة وأنواعها، صححه وضبطه فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثاني، ط ١٩٩٨ ج ١/ص ١٦٥.

(٦) ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي (ت ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م)، مختصر البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير، المسمى بأحاديث تتعلق بأحكام مختلفة المراتب، وهو مختصر لكتاب تلخيص الخبير للحافظ ابن حجر العسقلاني، جمع الشيخ محمد بن درويش الحوت البيروني (ت ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٥ م)، تحقيق كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية، ط ١٩٨٧ ج ١/ص ٢٢٨ حديث رقم ١٧١٢.

(٧) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق محمود بن الجميل وآخرون، مكتبة الصفا، القاهرة / ٢٠٠٤ ج ١/ص ٤٥.

(٨) ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٣٣ هـ / ١٤٧٨ م)، النشر في القراءات العشر، صححه وراجعته: علي محمد الضبّاع، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١/ص ٢٢٠.

(٩) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد، (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧ م) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، دار الهجرة، بيروت / ١٩٨٦ ص ٩٥.

كما يلحظ تنبّه بعض العلماء إلى ما في روايات هذه المقولة من مغالطات لا تتفق مع ما جاء في سيرته عليه السلام، ويبدو ذلك من قول الحافظ ابن حجر العسقلاني^(١):

"قوله: روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: 'أنا سيد ولد آدم بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد، واسترضعت في بني زهرة'، ويروي: 'أنا أفصح العرب بيد أني من قريش' إلى آخره، كأن اللفظ الأول مقلوب؛ فإنه نشأ في بني زهرة، وارتضع في بني سعد، وقد روى الطبراني في المعجم الكبير من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: 'أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أنا أعرب العرب، ولدتي قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأني يأتيني اللحن'.

وأورد السيوطي في المزهري الروائين، يقول^(٢):

"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: 'أنا أفصح العرب' رواه أصحاب الغريب، ورواه أيضاً بلفظ: 'أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش'.

ومما جاء في حق هذه المقولة أيضاً، قول علي القاري^(٣): "حديث 'أنا أفصح العرب بيد أني من قريش' قال السيوطي: لا يعلم من أخرجه ولا إسناده". وقال أيضاً^(٤):

"حديث أنا أفصح من نطق بالضاد. معناه صحيح ولا أصل له، كما قال ابن كثير وابن الجزري". وقال الشوكاني^(٥):

"حديث: أنا أفصح من نطق بالضاد، لا أصل له، ومعناه صحيح". ولعل أكثر من فصل القول في تحقيق هذا القول، العجلوني في قوله^(٦):

"أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش" قال في اللآلئ معناه صحيح، ولكن لا أصل له... وأورده أصحاب الغريب، ولا يعرف له إسناده، ورواه ابن سعد عن يحيى بن يزيد السعدي مرسلاً بلفظ: "أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان سعد بن بكر" ورواه الطبراني عن أبي سعيد الخدري بلفظ أنا أعرب العرب، ولدت في بني سعد فأني يأتيني اللحن؟ كذا نقله في مناهل الصفا بتخريج أحاديث الشفا للجلال السيوطي، ثم قال فيه: والعجب من المحلي (يقصد جلال الدين المحلي) حيث ذكره في شرح جمع الجوامع من غير بيان حاله، وكذا من شيخ الإسلام

(١) ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي (ت ٨٠٤هـ / ١٤٠١م)، مختصر البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير، ص ٢٢٨ حديث رقم ١٧١٢.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) المزهري في علوم اللغة وأتباعها، ضبطه ووضع حواشيه: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١/ ١٩٩٨ ج ١/ ١٦٥.

(٣) القاري، علي الهروي المكي، (ت ١٠١٤هـ / ١٥٩٢م) المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، وهو الموضوعات الصغرى، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط ٥، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٩٤ ص ٦٠.

(٤) المصدر نفسه ص ٦١.

(٥) الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م)، الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية، تحقيق عبد الرحمن يحيى البستاني، صححه عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت/ ١٩٩٠ ص ٣٢٧.

(٦) العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، (ت ١١٦٢هـ / ١٧٤٩م)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، صححه وعلق عليه: أحمد الفلاش، ط ٤ مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٥ ج ١/ ٢٣٢ وانظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت/ ١٩٦٠ ج ١/.

زكريا حيث ذكره في شرح الجزرية، ومثله أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، أورده أصحاب الغرائب ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده.

هذه خلاصة بعض ما جاء في هذا القول المنسوب إلى رسول الله عليه السلام. ونستطيع أن نللم شتات ما قيل في حق هذه المقولة عنوان الدراسة بأن هذا القول وصف بأنه: لا أصل له، ولا يعلم إسناده ولا إخراج، وهو من الغريب، ورواه بعضهم مرسلاً، كما أنه روي بروايات مختلفة. وفي رواياته ما يخالف ما أثر في سيرته صلى الله عليه وسلم.

وإذا ثبت لنا بعد هذا العرض أن هذا القول لا يجوز أن يكون حديثاً للأسباب المذكورة، فإن التعويل عليه في إثبات بعض مسائل اللغة وقضاياها، مما تجدر إعادة النظر فيه.

وهذا لا يعني بحال نفي ما ورد فيه من بعض المعاني كفصاحته صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه لا يحتاج إلى هذه المقولة لإثبات هذه المكانة. ولكن المقصود أن ثمة قراءات لغوية استندت إلى هذه المقولة، وبنت أحكامها عليها، من غير أن تتحقق من صحة نسبتها، أو أنها اعتمدت على هذه المقولة في استخلاص معانٍ لبعض أدوات اللغة تبدو متكلفة، كجعلهم "بيد" بمعنى: من أجل. كما سيمر بنا لاحقاً.

ثانياً، مفهومه وأثره في الدرس اللغوي:

مهما يكن من شأن هذا القول، فإن الذي يهمنا في هذه الدراسة هو الوقوف على حقيقة المقصود به عند علماء العربية القدماء والمحدثين.

وجاء الحديث عن مفهوم القول وأثره مجتمعاً؛ نظراً لارتباط الأثر في الدرس اللغوي بحقيقة الفهم، فبالطريقة التي فهم بها هذا القول، كان أثره في اللغة.

وإذا أنعمنا النظر وأمعنا وجدنا الخلاف الذي نشأ من مدلول هذه المقولة كان على غير وجه، فثمة مُشكّل في مفهوم الضاد الوارد فيه: "أنا أفصح من نطق بالضاد". وثمة مُشكّل آخر في معنى "بيد" وما تنتطوي عليه من دلالة. ويبدو أن الوقوف على حقيقة مفهوم الضاد المشار إليه بالمشكّل، كفيل بتحديد مفهوم "بيد" المشار إليه بالمشكّل الثاني.

بمعنى أن ما أثير من خلاف في معنى "بيد"، وما تناقله القدماء والمحدثون من دلالات مختلفة لها، يبدو محسوماً إذا عرفنا قبل ذلك كله دلالة "الضاد" في هذا القول المأثور.

فهل القصد في مقولة: أنا أفصح من نطق بالضاد... أنه أفصح من نطق بالعربية، كما ظن بعض الدارسين، انطلاقاً مما تكنى به العربية: (لغة الضاد)؟

يقول أحمد بن فارس^(١): "قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "أنا أفصح العرب ميد (وروي: بيد) أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر" وكان مسترضعاً فيهم، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب علياً هولزن وسفلى تميم." وإلى نحو ذلك ذهب الرضي الأسترابادي في شرحه على كافية ابن الحاجب. يقول^(٢):

(١) ابن فارس، أحمد بن فارس (ت ٣٩١هـ/ ١٠٠٠م)، الصحاح في لغة اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحجابي، ص ٤٦.

(٢) الأسترابادي، رضي الدين محمد بن حسن، (ت ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، شرح كافية ابن الحاجب، (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م)، قدم له ووضع حواشيه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ط ١/ ١٩٩٨ ج ٢ ص ١٥٨.

"وقولهم: "بيد" مثل "غير"، ولا نجيء إلا في المنقطع مضافة إلى "أن" وصلتها، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش".

وهذا ما حمله الدكتور حنا حداد في دراسة أورد فيها هذا القول المأثور^(١)، إذ حمل "الضاد" في هذا القول المأثور على أنها "العربية"، والمقصود أن النبي عليه السلام هو أفصح من نطق بالعربية. إن الأخذ بمفهوم الضاد على المعنى المجازي (اللغة العربية) أي "العربية"، يوقع في إشكال من نوع آخر يتصل بحقيقة فصاحة قريش.

وقد أشار إلى هذا المشكل الدكتور حنا حداد لما تعرض لأراء العلماء في القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد..." فبين موقفهم منه في ضوء مفهوم "بيد"، وبدا له أن الخلاف قد وقع بين من قالوا: إن "بيد" بمعنى "غير" أو بمعنى "لكن" أو بمعنى "إلا"، ومن قالوا: إن "بيد" بمعنى "من أجل". يقول^(٢):

"ومرجع الخلاف حول هذا الحديث ورفض بعضهم له - في اعتقادنا - يعود إلى أن "بيد" فيه تثير قضية كبيرة وتخلق إشكالاً أكبر؛ لأنها في الحديث هي المحور الرئيس الذي يركز عليه مدلوله. فهي بمعنى "إلا" أو بمعنى "غير" أو بمعنى "لكن" صيرت الحديث شاهداً على عدم فصاحة قريش، وجعلته دليلاً على بطلان ما أجمع عليه العلماء بشأن لغتها".

انعقد الإجماع عند جل العلماء لا سيما القدماء منهم على أن قريشاً أفصح القبائل العربية. يقول أحمد بن فارس^(٣):

"أجمع علمائنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشاً أفصح العرب السنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وآله وسلم... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلاتهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب...."

ويقول السيوطي^(٤):

"قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى "بالألفاظ والحروف": كانت قريش أجود العرب انتقاءً للألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وإيانة عما في النفس".

(١) انظر: حنا حداد، بيد ولا سيما بين ثبات المصطلح وتمرد الاستعمال، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج ٤٢-٤٣ السنة السادسة عشرة، كانون الثاني - كانون الأول ١٩٩٢ ص ٢٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٨٣.

(٣) ابن فارس، أحمد بن فارس (ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٠م)، الصحاح في فقه اللغة العربية، ومسانهلها وسنن العرب في كلامها، ص ٣٣ وانظر: الفارابي، محمد بن محمد الفارابي (ت ٢٣٩هـ/ ٩٥٠م)، كتاب الحروف، قدم له إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٦ ص ٨٤، وانظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الاقتراح في علم أصول النحو، قدم له: أحمد الحمصي ومحمد أحمد قاسم، ط ١/ ١٩٨٨ ص ٤٤، وابن خلدون، عبد الرحمن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، ط ١/ ١٩٨٦ ص ٥٥٥.

(٤) السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، كتاب الاقتراح في علم أصول النحو، ص ٤٤.

ويقول ابن جني^(١):

"حدثنا أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب قال: ارتفعت قریش في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضعج قيس، وعجرفية ضبّة، وتلثة بهراء."
ولكن الأخذ بظاهر نص القول المتناقل: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قریش... وحمل "بيد" على معنى "غير" في ضوء مفهوم "الضاد" المقصود به "اللغة العربية"، لما عُرِفَ عنها أنها لغة الضاد، صار يفضي إلى ما يمكن تسميته بالتضارب، أو عدم التوفيق بين طرفي النص: فصاحته صَلَّى الله عليه وسلّم، وكونه من قریش. فهو أفصح من نطق بالعربية غير أنه من قریش أو هو أفصح من نطق بالعربية لكنه من قریش...!
ولذلك أثر الباحثون اللجوء إلى التأويل والافتراض، للتخلص من هذا التناقض أو لتسوية هذا التضارب؛ وكان موطن هذا التأويل هو كلمة "بيد"، فحملوا "بيد" على معنى: "من أجل"، وإن نصّ جمهور العلماء على أن معناها "غير" أو "لكن".

يقول السيوطي^(٢):

"بيد...معناها معنى "غير"، في المشهور...يقال إنه كثير المال بيد أنه بخيل. وفي "المحكم" أن هذا المثال حكاه ابن السكيت، وأن بعضهم فسّرها بمعنى "على" وقيل هي بمعنى "من أجل"، وخرّج عليه حديث: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قریش". وقال ابن مالك إنها بمعنى "غير" على حدّ:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنْ سيوفُهم
بهنْ فلولَ من قراعِ الكتائبِ

وأنشد أبو عبيدة على مجيئها بمعنى "من أجل" قوله:

عنداً فعلتُ ذاكَ بيدَ أنسي
أخافُ إنْ هلكْتُ أنْ تُرني.

وقد كفانا مؤنة تتبع أقوال علماء اللغة بمعاني "بيد" في الاستخدام اللغوي ما أثبتته الدكتور حنا حداد في بحثه عن "بيد". يقول^(٣):

"بيد في اللغة بمعنى "غير" كذا قال الكسائي وتبعه في ذلك جماعة منهم، ابن السكيت والقاسم بن سلام، وابن السراج، وأبو الطيب اللغوي، والأزهري، وابن فارس، والجوهري، وأبو عبيد الهروي، والزمخشري، والقاضي عياض، وابن الأثير، والرضي الأستراباذي، والسيوطي. وهي عند أبي عبيدة معمر بن المثنى بمعنى: "من أجل". وعند الأموي بمعنى "على". وعند ابن مالك بمعنى: "لكن". وعند الإسفراييني بمعنى "إلا". و"بيد" في الاستعمال النحوي من أسماء الاستفهام كذا قال ابن السراج، والرضي الأستراباذي، وابن هشام، ومن أحرف الاستثناء عند ابن مالك."

ويرى الباحث أن هذا الحمل والتأويل (حمل بيد على معنى من أجل)، ليس إلا من قبيل المحافظة على معنى هذا القول، وتخريج شطره الثاني؛ لكيلا يشوب فصاحة قریش أدنى شائب، فقریش أفصح العرب، وأجودها انتقاءً، وأحسنها إيانة.

(١) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م)، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط ٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ودار الشؤون الثقافية العامة، بغداد / ١٩٩٠ ج ٢ ص

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، معجم الهوامع في شرح جمع الجوامع، دار الكتب العلمية، ط ١/بيروت، ١٩٩٨ ج ٢ ص ٢٠٨.

(٣) حنا حداد، بيد ولاسيما بين ثبات المصطلح وتمرد الاستعمال. ص ٢٨٣.

وبالعودة إلى ما ذكر في كتب اللغة في معنى "بيد"، نجد أنها بمعنى "غير"، وهذا أكثر ما تناقله علماء اللغة واتفق الإجماع عليه، فلم يقل بمعناها "من أجل" سوى أبي عبيدة معمر بن المثنى كما يروي ابن هشام فسي مغني اللبيب^(١).

ولكن اللغة تحمل على ما هو كائن، لا على ما ينبغي أن يكون. وليس التأويل والافتراض أولى من الأخذ بالظاهر عند محاكمة النص، بل الأخذ بالظاهر هو الأصل الأول الذي يجدر التعويل عليه، واللجوء إليه في استكناه الدلالة أولاً، ثم إن لم يغنِ الأخذ بالظاهر صير إلى التقدير، فإن لم يفِ بالحاجة، صير إلى التأويل المشفوع بالأدلة والبراهين.

وانطلاقاً مما سبق، فإن مناقشة ما ورد في القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد..." يمكن أن تأخذ منحى آخر بعيداً عما ذهب إليه بعض الباحثين.

وقبل الشروع في الحديث عن مفهوم: "أنا أفصح من نطق بالضاد"، يجدر أن يُطرح التساؤل الآتي: هل كان يطلق على العربية "لغة الضاد" في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؟ وهل عرف الخليل وسيبويه ومن هم في طبقتهم من النحاة واللغويين تسمية العربية بلغة الضاد؟ ومتى بدأ استعمال هذا المصطلح لأول مرة؟ يقول إبراهيم أنيس^(٢):

"وهكذا نرى أن علماء اللغة حتى أواخر القرن الثاني من الهجرة، لم يشير إلى صوت الضاد على أنه مما تميزت به العربية وحدها. ولم يطلقوا على هذه اللغة ذلك القول المأثور: "لغة الضاد". وكل ما أشاروا إليه في كتبهم أنه كان هناك أنواع من النطق غير مستحسنة وقعت في بعض الأصوات ومن بينها الضاد."

ويبدو من وجهة نظرنا أن هذا المصطلح المجازي الذي تكتن به العربية، مصطلح تعليمي، فالعربية بعد أن ترتبت أجديتها، ورست قواعد تعليمها، صار شائعاً في الوسط التعليمي أنها لغة الضاد، لتعبر بها الحرف عن اللغات التي كانت معروفة لدى اللغويين آنذاك. فإذا صح أن هذه المقولة مقولة تعليمية — وأغلب الظن أنها كذلك — فإنها نتاج الدرس اللغوي الذي نشأ في القرن الثاني الهجري، وعليه فإن هذا القول — من الناحية المنطقية — لا يصح لفظاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، على الرغم أنه عليه الصلاة والسلام أفصح العرب وأعربهم.

ومن جهة أخرى، يبدو مصطلح "الضاد" المكنى به عن العربية عندما نقول: لغة الضاد، ذا طابع لغوي مقارني، إذ يفهم من وصف العربية بلغة الضاد، أنها مختصة بهذا الصوت دون سواها من اللغات، فغيرها من اللغات لا ضاد فيها. بالإضافة إلى أن من أطلق هذا المصطلح (لغة الضاد) على العربية، كان له باع طويل في معرفة لغات أخرى غيرها، حتى بدا له أن العربية منفردة عن غيرها في هذا الصوت، فأطلق عليها لغة الضاد.

(١) انظر: ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الله الأنصاري (ت ٧٦١هـ/١٣٥٩م)، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ١/٢٣٢.

(٢) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٥ ص ٥٧ وإذا عدنا إلى ثبت الدكتور حنا حداد في رسده لمن أثبت مقولة: "أنا أفصح من نطق بالضاد" من علماء اللغة المتكلمين، وجدنا عنده أبا عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٩م) في القرن الثالث الهجري أول من أورده ونسبه إلى الرسول عليه السلام. ولكن بالعودة إلى كتاب غريب الحديث لأبي عبيد بن سلام نجد نص "أنا أفصح العرب". كما مر بنا سابقاً. انظر: حنا حداد، "بيد ولاسيما بين ثبات المصطلح وتمرد الاستعمال، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد المزدوج ٤٢-٤٣.

وعلى أية حال فإن كلا الطابعين اللذين يميزان هذه المقولة ببيان بها من أن تكون حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم.

وإذا انتقلنا إلى دلالة التعبير في "بيد"، فإن حملها في القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش" على حد قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

من باب المجاز، كقولك: "لا عيب في زيد بيد أنه الأكرم خلقاً"، فإن هذا جائز مجازاً، كما في قوله تعالى: "فبشرهم بعذاب أليم"، ولكن هذه الإجازة ينبغي ألا تؤخذ بمعزل عن بقية أدلة التحقيق في نسبة هذه المقولة، والوجه الآخر الذي يحتمل الحقيقة لا المجاز، وهو الوجه الذي جعل ابن هشام رحمه الله يقول إن معنى "بيد" في هذه المقولة هو "من أجل".

وإذا أردنا أن نأخذ بالتأويل أو الحمل على المعنى أو المجاز اتسعت دلالة التعابير، وأرى أن تناول اللفظ يجدر أن يصار فيه من الناحية الدلالية وفق رؤية الأولوية، فإذا كان الأولى أن يحمل على الظاهر لم نلجأ إلى التقدير، وإذا كان التقدير أولى لم نلجأ إلى التأويل...

والقصد من هذه الأولوية هو أنه إذا أمكننا أن نحمل مفهوم الضاد على الحقيقة دون مأخذ من المأخذ التي نالت من الحمل المجازي، فإن هذا أولى وأجدر.

إن معرفة حقيقة "الضاد" في هذا القول المأثور كفيلاً بإيضاح حقيقة هذه المقولة دون لبس أو تناقض، فحمل "الضاد" على معناها الحقيقي لا المجازي، بجلي حقيقة القصد، ويدفع اللبس. فالضاد في هذه المقولة من وجهة نظرنا هي: صوت الضاد، وليست كناية "اللغة العربية" كلغة تمتاز بهذ الصوت.

فالقائل الذي قال: أنا أفصح من نطق بالضاد، قصد على أغلب الظن: صوت الضاد، وليس لغة الضاد؛ فصوت الضاد صوت ذو كلفة نطقية عالية في العربية، وهو من الأصوات المتطورة في اللغة، وقد حفظت لنا كتب اللغة وصفاً للضاد القديمة يختلف في المخرج والصفة عن الضاد التي نعرفها اليوم في الفصحى. ويبدو لنا هذا التوجه الذي ذهبنا إليه من خلال المسائل الآتية المتعلقة بصوت الضاد:

أولاً، ثمة روايات تؤنس باستشعار الضاد صوتاً مشكلاً في اللغة منذ عهد مبكر، وقبل نشوء الدرس اللغوي العربي، يقول السيوطي^(١):

"قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، أضحى بضبي؟ قال: وما عليك لو قلت: بضبي؟ قال إنها لغة. قال: انقطع العتاب ولا بضحي بشيء من الوحش". وجاء في البيان والتبيين^(٢):

"فأما الضاد فليست تخرج إلا من الشدق الأيمن، إلا أن يكون المتكلم أعسر يسراً، مثل عمر بن الخطاب رحمه الله، فإنه كان يخرج الضاد من أي شذقيه شاء، فأما الأيمن والأعسر والأضبط، فليس يمكنهم ذلك إلا بالاستكراه الشديد".

(١) السيوطي (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١/ ٤٣٩.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، ط ٤ ج ١ ص ٢٦ وانظر شرح قول الجاحظ في الضاد: كتاب كاسد الزيدي، فقه اللغة العربية، ط ١/ ٢٠٤ دار الفرقان، عمان ص ٤٤٠.

ويقول د. كمال بشر معلقاً على هذا النص^(١):

"وكما في كلام بعضهم من أن الرواة كانوا يضربون مثلاً لبلاغة عمر أنه كان يخرج الضاد من أي شدقيه شاء"

وإذا أخذنا بالاعتبار الخلاف الملحوظ بين علماء العربية القدماء في وصف صوت الضاد، والاختلاف الذي نلاحظه بين الضاد القديمة والضاد الحديثة — كما سيأتي مفصلاً — بدا لنا صحة قول هنري فليش^(٢):

"ولقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد، وهو عبارة عن صوت مفخم يحتمل أنه كان ظاء جانبية أي أنه كان يجمع الظاء واللام في ظاهرة واحدة،..."

ومع ذلك فإننا لا نسلم بصحة مقولة: "أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أبي من قریش ... بوصفها حديثاً شريفاً، ولكن نسلم بصحة استشعار اللغويين ما في صوت الضاد من مشكل، وبتفرد العربية (على وجه العموم) بهذا الصوت، وأن هذا الاستشعار كانت له بوادر قديمة بدأت من عهد مبكر.

ثانياً، ثمة إشكالية في نطق صوت الضاد مستوحاة من عدة أوجه يمكن إجمالها بالآتي:

١- ثمة صورتان نطقيتان مسموعتان لصوت الضاد منذ زمن سيبويه (١٨٥هـ)، فقد حدثنا في كتابه عن حرف (فونيم) الضاد، وحرف آخر (الفون) سمّاه الضاد الضعيفة، مما يدل أن لهذا الصوت أكثر من صورة نطقية، والأول هو الفصيح^(٣).

ويبدو أن الضاد الضعيفة ظلت تسير جنباً إلى جنب مع الضاد الفصيحة، فهذا ابن يعيش في القرن السابع يقول^(٤): "والضاد الضعيفة من لغة قوم اعتاصت عليهم، فربما أخرجوها طاء وذلك أنهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا، وربما راموا إخراجها من مخرجها، فلم يثأت لهم فخرجت بين الضاد والطاء".

٢- اختلافهم في وصف مخرج الضاد الفصيحة، واختلافهم في جهة سهولة وخفة مخرج الضعيفة، فمنهم من جعل إخراجها من (الجانب) الشدق الأيسر أسهل، ومنهم من جعل إخراجها من الشدق (الجانب) الأيمن أسهل، ومنهم من ساوى بينهما.

يقول الخليل^(٥): "ثم الجيم والشين والضاد في حيز واحد،... والجيم والشين والضاد شجرية لأنّ مبدأها من شجر القم".

(١) كمال بشر، الأصوات العربية، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٧ ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) هنري فليش، العربية الفصحى، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط٢، دار المشرق، بيروت/ ١٩٨٣ ص ٣٧.

(٣) انظر سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ/ ٧٩٧م)، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣/ ١٩٨٨ ج٤/ ٤٣٢-٤٣٣.

(٤) ابن يعيش، أبو البقاء موفّق الدين بن علي (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م)، شرح مفصل الزمخشري، وضع فهارسه عبد الحسين المبارك، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط١/ ١٩٨٨ ج ١٠/ ١٢٧.

(٥) انظر: الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت١٧٥هـ/ ٧٩١م) كتاب العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١/ ٢٠٠٣ ج ١ ص ٤١.

ولكن سيبويه لم يصف مخرجها كذلك. بل ذهب إلى أن الضاد الفصيحة من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس^(١). وذهب إلى أن مخرج الضعيفة من الشدق (الجانب) الأيسر أسهل، يقول^(٢): "وهو (مخرجها) من أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس، وهي من الجانب الأيسر أسهل... إلا أن الضاد الضعيفة تتكلف من الجانب الأيمن وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة... وهي عنده صوت رخو، فلم يذكروها مع الأصوات الوقفية. وعدّها من الأصوات الرخوة. يقول^(٣):

"ومنها الرخوة وهي: الهاء والحاء والغين والخاء والسين والصاد والضاد والسين والظاء والطاء والذال والفاء". ويقول المبرد^(٤).

"ويعارضها (الجيم) الضاد ومخرجها من الشدق، فبعض الناس تجري له في الأيمن، وبعضهم تجري له في الأيسر".

ولكن ابن جني جعل إخراج الضاد (الفصيحة والضعيفة) من الجانبين الأيسر والأيمن سواء، يقول^(٥): "ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد، إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر".

ففي قوله: "ومن أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس مخرج الضاد" وصف لمخرج الفصيحة. وفي قوله: "إلا أنك إن شئت تكلفتها من الجانب الأيمن، وإن شئت من الجانب الأيسر". وصف لمخرج الضعيفة. ٣- تميّز العربية بصوت الضاد في وعي اللغويين. يقول الجاحظ^(٦): "وقال الأصمعي: ليس للروم ضاد، ولا للفرس ثاء، ولا للسرياني ذال...".

وأشار ابن جني إلى أن الضاد صوت متميز، امتازت به العربية دون غيرها من اللغات. يقول^(٧): "واعلم أن الضاد للعرب خاصة، ولا يوجد من كلام العجم إلا في القليل. فأما قول المتنبي: وهم فخر كل من نطق الضاد فذهب فيه إلى أنها للعرب خاصة".

ويقول ابن جني في كتابه الفسر معلقاً على بيت المتنبي^(٨):

- (١) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ/٧٩٧م)، الكتاب ٤/٤٣٣.
- (٢) المصدر نفسه ٤/٤٣٢ ووافقه بعض العلماء انظر: الأنباري، أبو البركات (٥٧٧هـ/١١٨٢م) أسرار العربية، الأنباري، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٧ ص ٢٠٨.
- (٣) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ/٧٩٧م)، الكتاب، ج ٤ ص ٤٣٥.
- (٤) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ/٨٩٩م) المقتضب، تحقيق حسن حمد، مراجعة إميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٩٩٩ ج١/٢٢٣.
- (٥) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، سر صناعة الإعراب، تحقيق محمد حسن ولحمد رشدي، دار الكتب العلمية، بيروت ط١/٢٠٠٠ ج ١ ص ٦٠.
- (٦) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (٢٥٥هـ/٨٦٩م) البيان والتبيين ١/٢٦ كما يحدثنا عن لغة نصيب الضاد.
- (٧) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ/١٠٠٢م) سر صناعة الإعراب، ج ١/٢٢٢.
- (٨) ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ/١٠٠٢م) "الفسر" شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، تحقيق رضا رجب، دار الزاوية، دمشق ط١/٢٠٠٤ المجلد الأول ص ٨٩١ والبيت من قصيدة مطلعها:
كم قتول كما قتلت شهيد
ليباض الطلى وورد الخدود
وفي شرح أبي البقاء العكبري (ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م) على البيت خلاف ذلك، يقول:
"المنعنى: يقول لهم: هم أفصح العرب؛ لأن الضاد لم يطقها إلا العرب، أي هم فخر لكل العرب... انظر: ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، المسمى: بالتيبيان في شرح الديوان، صححه وروى فهارسه مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، أعيد طبعه بالأوفست ١٩٧٨ ج ١ ص ٣٢٣.

"قال ابن دريد: الضاد للعرب خاصة، ولقليل من العجم، وذهب المتنبّي أنها للعرب لا غير، فأراد: وبهم فخر العرب كلّها. وقول ابن دريد هو الذي ينبغي أن يكون المعمول عليه المأخوذ به، لأنّ المثبت حجة على النافي، ومن سمع حجة على من لم يسمع."

٤- لم يكن صوت الضاد من الأصوات ذات السهولة الأدائية، حتى على العرب أنفسهم. يقول مكي بن أبي طالب القيسي^(١): "ولا بدّ من التحفظ بلفظ الضاد حيث وقعت فهو أمر يقصّر فيه أكثر من رأيت من القراء والأئمة؛ لصعوبته على من لم يدرب فيه... الضاد أصعب الحروف تكلفاً في المخرج، وأشدّها صعوبة على اللافظ".

ويقول ابن الجزري^(٢):

"والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله، فإنّ السنة الناس فيه مختلفة، وقيل من يحسنه منهم، فمنهم من يخرجهم ظاء، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاماً مفخّمة، ومنهم من يشمه الزاي، كل ذلك لا يجوز."

ولسنا نغالي إذا قلنا إنّ نطق الضاد القديمة غير معروف لنا اليوم بدقة، فضادنا كما نسمعها في الفصحى انفجارية والضاد القديمة احتكاكية، وضادنا اليوم لثوية أسنانية، والقديمة جانبية من حافة اللسان وما يليه من الأضراس. يقول كمال بشر^(٣):

"فالضاد (اليوم) إذن صوت أسناني لثوي انفجاري مجهور مفخّم. وهذا الوصف الذي أوردناه للضاد يختلف عمّا ذكره علماء العربية لهذا الصوت في نقطتين أساسيتين:

أولاهما: تتعلق بموضع النطق، والثانية: خاصة بكيفية مرور الهواء عند النطق... أما تفسير ما ذهب إليه هؤلاء العلماء (القديما) فيمكن إرجاعه إلى واحد من احتمالين اثنين، الأول: يرى البعض أنه ليس من البعيد أن يكون لغويو العرب قد أخفقوا في تحديد الموضع الدقيق لنطق الضاد. ولكن هذا الاحتمال بعيد في رأينا... والثاني: يبدو أن سيبويه وغيره من علماء العربية والقراء كانوا يتكلمون عن ضاد غير تلك الضاد التي نعرفها ونمارسها... وينطبق هاتين الظاهرتين مضمومتين (يقصد ما قاله القديما عن مخرجها وصفقتها الاحتكاكية) إلى نقطة النطق نحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد، ولقّما استطاع واحد منا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدّمه لها العرب كم من خواص وسمات."

والمثال في آراء المحدثين يجدهم يختلفون في تقدير حقيقة الضاد العربية القديمة، فذهب برجشتراسر إلى أنها كاللام المطبقة بقول^(٤):

(١) مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٦م)، الرعاية، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار عمّار، عمّان، ط ٣/ ١٩٩٦ ص ١٨٤، ١٨٥.

(٢) ابن الجزري، أبو الخير محمد بن محمد الدمشقي (ت ٨٣٣هـ / ١٤٧٨م)، النشر في القراءات العشر ج ١/ ٢١٩.

(٣) كمال بشر، الأصوات العربية، ١٠٤-١٠٧ ويقول رمضان عبد التواب: "غير أننا إذا نظرنا إلى وصف القديما لها (للضاد)، عرفنا أن الضاد القديمة تختلف عن الضاد التي نلّطقها الآن، في أمرين جوهريين: أولهما، أن الضاد القديمة ليس مخرجها الأسنان واللثة، بل حافة اللسان أو جانبها. وثانيهما، أنها لم تكن انفجارية "شديدة" بل كانت صوتاً احتكاكياً رخواً". انظر: رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ط ٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة/ ١٩٩٧ ص ٦٣.

(٤) برجشتراسر، التطور النحوي للغة العربية، تحقيق وتعليق رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ٢/ ١٩٩٤ ص ١٨٠، ١٩.

"...فليس لفظها البدوي الحاضر، نفس لفظها العتيق؛ لأنّ مخرج الضاد في جدول المخارج من حافة اللسان، ومن القدماء من يقول: من جانبه الأيسر، ومنهم من يقول: من الأيمن، ومنهم من يقول: من كليهما، فالضاد العتيق حرف غريب جداً،... ويغلب على ظني أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحد من العرب... غير أنّ للضاد نطقاً قريباً منه جداً عند أهل حضرموت وهو كاللّام المطبقة."

وذهب جان كانتينو إلى أنها ظاء انحرافية، أي ظاء متبوعة بلام يقول^(١):

"وقد وصف النحاة العرب النطق بالضاد وصفاً حسناً... على أنّ هذا التحديد ليس كافياً تمام الكفاية، إذ يجوز معه التردد في نطق هذا الحرف بين دال مفخمة ذات زائدة لامية وبين الظاء ذات الزائدة الانحرافية، وبين الزاي المفخمة ذات الزائدة الانحرافية إلا أنّ اتجاه تطور هذه الأحرف لا يترك لك أي شك في هذا الصدد فالنطق القديم كان (ظُل) أي ظاء ذات زائدة انحرافية..."

وحسّن نطقه إبراهيم أنيس "بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهي نطقه بالظاء."^(٢) وقريب منه كمال بشر الذي عدها أقرب ما تكون في نطقها إلى ذلك الصوت الذي هو وسط بين الضاد والظاء.^(٣) وذهب المستشرق ليتمان^(٤) إلى أنها في الأصل دال مفخمة.

ويقول حسام النعيمي في وصف نطق صوت الضاد^(٥):

"هو وصف مبني على نطق بعض العرب اليوم لا جميعهم، وهو لا يوافق نطق العرب يوم وصفت الأصوات آنذاك"

إنّ فالضاد صوت متطور في العربية، يقول إبراهيم أنيس معلقاً على ما ذهب إليه الخليل في وصف هذا الصوت^(٦):

"يستدل من وصف القدماء لهذا الصوت على أنّ الضاد كما وصفها الخليل ومن نحوه تخالف تلك الضاد التي ننطق بها الآن، إذ معها ينفصل العضوان المكونان للنطق انفصلاً بطيئاً نسبياً، ترتب عليه أن حلّ محل الانفجار القجائي انفجار بطيء نلاحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الأصوات وما يليه من صوت لين..."

(١) كانتينو، جان، دروس في علم أصوات العربية، نقله إلى العربية صالح القرمادي، نشرات مركز الدراسات والبحوث، الجامعة التونسية/١٩٦٦ ص ٨٥ و ٨٧.

(٢) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٤٧.

(٣) كمال بشر، الأصوات العربية، ص ١٠٩.

(٤) انظر: ليتمان، بقايا اللهجات العربية القديمة في الأدب العربي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ١٠، ط ١/١٩٤٨ ص ٢-٣ ورأي ليتمان هذا نقلاً عن كتاب محاضرات في اللسانيات، لفوزي الشايب، منشورات وزارة الثقافة، عمان، ط ١/١٩٩٩ ص ١٦٨.

(٥) حسام النعيمي، الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الرشيد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠ ص ٣٠٨ وذهب سمير استيتية في معرض حديثه عن هذا الصوت إلى أنّ "المستأني في وصف أجدادنا للضاد يؤكد أنها كانت تنطق على النحو الذي تنطق به الضاد الجبالية المعاصرة. واللغة الجبالية هي إحدى لهجات الحميرية، وما زالت تستعمل حتى الآن، في بعض مناطق سلطنة عُمان". سمير استيتية، الأصوات اللغوية، رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط ١/٢٠٠٣.

(٦) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٤٩.

وقد كان العربي يتحذلق في نطقه للضاد ويفتن بإخراجها، إذ ينطقها بعضهم من الجانب الأيمن وبعضهم من الجانب الأيسر. ولكن الضاد الحديثة اليوم كما هو متعارف عليه في الفصحى هي النظير المفخم للدال، أي أن نطق الدال يتم بالطريقة ذاتها التي يتم به نطق الضاد مع فارق واحد هو أن مؤخرة اللسان ترتفع نحو الطبق مع الضاد. فهي بذلك صوت وقفي أولاً، ومخرجه من اللثة والأسنان ثانياً، في حين ليس للضاد القديمة نظير من الأصوات اللغوية. يقول سيبويه^(١):

"ولولا الإطباق لصارت الطاء دالاً، والصاد سيناً، والظاء ذالاً، ولخرجت الضاد من الكلام؛ لأنه ليس شيء من موضعها غيرها."

ويبدو أن نطق الضاد قديماً وحديثاً كان يشوبه انحراف أو خلط مع صوت الظاء، مما حدا ببعضاً من علماء اللغة إلى التأليف في الفرق بين الضاد والظاء.^(٢) يقول ابن مكي الصقلي في باب التبديل بين الضاد والظاء^(٣):

"هذا رسم قد طمس، وأثر قد درس، من ألفاظ جميع الناس، خاصتهم وعامتهم، حتى لا تكاد ترى أحداً ينطق بضاد ولا يميزها من ظاء، وإنما يوقع كل واحدة منهما موقعها، ويخرجها من مخرجها، الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير. فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما في كتاب أو قرآن..."

ولكن هل جرت القراءات على إبدال الضاد والظاء؟ إذا انتقلنا إلى القراء لا نجد إلا قراءة واحدة تعاور فيها صوتا الضاد والظاء وهي في قراءة الآية الرابعة والعشرين من سورة التكويد في قوله تعالى: "وما هو على الغيب بضلين".

يقول مكي بن أبي طالب القيسي^(٤):

"قوله: 'بضلين' قرأه ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء، على معنى 'متهم'... وقرأ الباقر بالضاد، على معنى: 'ببخيل'... وقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ 'بظلمين' تعنسي بالظاء."

(١) سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ/٧٩٧م)، الكتاب، ج ٤ ص ٤٣٦.

(٢) انظر على سبيل المثال: ابن مالك، محمد بن عبد الله (٦٧٢هـ/١٢٤٨م)، الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد، تحقيق حسين تورال، وطه محسن، مطابع النعمان، النجف الأشرف/١٩٧٢ ص ٩٧ والاعتماد في نظائر الظاء والضاد، لابن مالك أيضاً، تح حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط ٢/١٩٨٤، وانظر: أبو الحسن علي بن أبي الفرج بن أحمد القيسي الصقلي (نيف وسبعين وأربعمئة/١٠٧٨ تقريباً) كتاب في معرفة الضاد والظاء، تحقيق حاتم الضامن، مؤسسة الرسالة، ط ٢/١٩٨٥ وابن السيد البطلانيوسي، أبو محمد عبد الله بن السيد (٥٢١هـ/١١٢٧م): ذكر الفرق بين الأحرف الخمسة وهي: الظاء والضاد والذال والصاد والسين، تحقيق حمزة عبد الله النشري، منشورات محمد علي بيضون، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ ص ١٨ وما بعدها.

(٣) ابن مكي الصقلي، أبو حفص عمر بن خلف (٥٠١هـ/١١٠٧م) تنقيح اللسان وتنقيح الجنان، كتمه: مصطفى عبد القادر عطيا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت /١٩٩٠ ص ٦٦ وزاد في ص ٦٨ فقد قال أهل العلم لا تجوز الصلاة خلف من يبذل الضاد ظاء في فاتحة الكتاب..."

(٤) مكي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ/١٠٤٦م) الكشف عن وجوه القراءات السبع وغلها وحججها، تحقيق عبد الرحيم الطرهموني، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٧ ج ٢ ص ٤٦٣.

ونلاحظ أن المعنى مختلف في القراءتين، وعليه فإن هذين الصوتين في نصوص العربية الفصحى لم يكن أحدهما ألفوناً للآخر، بمعنى أن التغير بينهما تغير فونيمي وليس ألفونياً، خلافاً لحال نطق الضاد اليوم إذ نسمعها ظاء. وهذا يثبت من وجه آخر أن الضاد القديمة غير الضاد الحديثة.

وفيما عدا ذلك فإن ما روي من قراءات ورد فيه إبدال فونيمي أغلبه بين الضاد والصاد، وقليل بين الضاد والطاء.^(١)

وليس حال نطق الضاد اليوم في الأداء النطقي بعيداً عما وصفه ابن مكي الصقلي، فتارة نسمعها ظاء، وتارة نسمعها زايًا، أو دالاً.

إن كل هذا الاختلاف الذي شاب صوت الضاد قديماً وحديثاً أدى إلى عدا إجابة نطقه ميزة يفتخر بها العربي إن هو حققها، فقد شاب الضاد نطق انحرف بها عن الفصاحة النطقية، ونقصد بالفصاحة النطقية: إخراج الصوت من مخرجه الصحيح، وإكسابه الصفات الصوتية التي يستحقها.

ويكفي للتدليل على ذلك، ما ذكره سيبويه من أصوات غير مستحسنة ولا كثيرة في لغة من ترتضى عربيته، ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر، وعد منها الضاد الضعيفة، ولا تتبين إلا بالمشافهة.^(٢)

وما هذه الإشارة إلى هذا الصوت غير المستحسن إلا دلالة على تداوله وسماعه منذ القرن الثاني الهجري، ولهذا صار من يجيد نطق الضاد غير الضعيفة فصيحاً، وصار نطق الضاد المستحسنة فصاحة، حتى عرفت العربية فيما بعد بنطق هذه الضاد الفصيحة.

وإذا كان العرب يستشكون نطق الضاد قديماً وحديثاً في كلامهم العام، فكيف بغيرهم من الأمم الأخرى الذين دخلوا في كنف الدولة العربية وأردوا تعلم الإسلام. فقد كانت الضاد مشكلة عويصة بالنسبة لمن يريد أن يتعلم العربية من الأعاجم ولهذا سميت العربية لغة الضاد.^(٣)

وبناء على كل ما تقدم، فإن الضاد في القول المأثور: "أنا أفصح من نطق بالضاد..." هو صوت الضاد لا لغة الضاد. ليكون الضاد في هذه المقولة لفظة وردت على الحقيقة لا على المجاز. إذ انصرف القصد إلى صوت الضاد في العربية الذي لا يجيد نطقه بعض أبنائها؛ فينطقونه تارة ظاء وتارة دالاً مفخمة... حتى صار العرب يفتخرون بإتقان أداء هذا الصوت، والافتتان بإخراجه من مخرجه الأيمن أو الأيسر.

يقول رمضان عبد التواب^(٤):

"تخلط بعض الشعوب العربية بين صوتي الضاد والطاء خلطاً كبيراً في النطق والكتابة، كما هو الحال في بعض بلاد العراق وشمال أفريقيا. وليس صوت الضاد الشائع في مصر وبلاد الشام بأسعد من صنوه في العراق وبلاد المغرب؛ إذ أنه تطور في اتجاه آخر من صوت الضاد القديم، وإن لم يختلط هنا بصوت الظاء، كما حدث في تلك البلاد."

(١) انظر: ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ/٩٨١م) مختصر في شواذ القرآن الكريم، غني بنشره: برجستراس، دار الهجرة، د.ت) ص ٣٧، ٤٤، ٥١، ٥٧، ٨١، ٨٩، ٩٣، ١٤٨.

(٢) انظر سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ/٧٩٧م)، الكتاب ٤/٤٣٢.

(٣) انظر: رمضان عبد التواب، مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والطاء، المجلد الحادي والعشرين من مجلة المجمع العلمي العراقي مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م ص ٤.

(٤) رمضان عبد التواب، مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والطاء من مجلة المجمع العلمي العراقي، ص ٥٠.

إذا ثبت لنا بعد هذا العرض أن المقصود بالضاد في هذه المقولة المأثورة هو صوت الضاد لا العربية فإن معنى كلمة "بيد" لا حاجة فيه إلى تأويل أو افتراض، إذ يظل معناها على ما ألفه الاستخدام اللغوي، فهي بمعنى "غير" أو "لكن".

وإذا عدنا إلى القول المأثور: أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أني من قريش واسترضعت في بني سعد... فعلى الرغم من أن هذا القول لم تثبت نسبته، وهو من الغريب الذي لا أصل له، إلا أننا نقرأ من خلاله أن قريشاً وبني سعد لم تكونا ممن ينطق صوت الضاد بصورته التي تقتضي مخرجه وصفاته الصوتية، وإن لم تصف لنا المقولة تلك الصورة، وهذا لا ينقص بحال من فصاحة قريش البتة، فهذا الصوت من الأصوات التي قل من يجيد نطقه وإخراجه بصفاته الصوتية حتى من القرشيين وفصحاء العرب.

وفي ذلك انتصار لفصاحته صلى الله عليه وسلم، لأنه على الرغم مما كانت عليه قريش وبني سعد في نطقهما بالضاد، كان عليه السلام يجيد نطق الضاد، بل هو أفصح من نطق هذا الصوت. (إذا أخذنا بهذا القول من حيث صحة معناه لا صحة نسبته).

وهذا لا يطعن بفصاحة هاتين القبيلتين البتة، بل يشهد لهما بالفصاحة! أما كيف يشهد لهما بالفصاحة؟ فإن القبيلة الفصيحة إن لم تحسن إجادة نطق صوت ما من مخرجه وبصفته المنصوص عليها فصاحة، وجاء من أبنائها من يقول: أنا أفصح من نطق هذا الصوت، ولكنني من تلك القبيلة، أو إلا أنني من قبيلة لها سمّتها اللهجي الذي تنطق فيه هذا الصوت بصورة مغايرة، أو غير أني من قبيلة لا تنطقه كما أنطقه... فهذا لا ينقص بحال من أن هذه القبيلة غير فصيحة، فقد تبدل قبيلة فصيحة صوتاً من أصوات اللغة، ولا يخرجها هذا الإبدال من حيز الفصاحة.

إن تميماً وأسدأ مثلاً من أفصح قبائل العرب، ولهما خصائصهما اللهجية في إبدال بعض الأصوات، وكذلك قبائل الاحتجاج التي ذكرها أبو نصر الفارابي في وثيقته، نجد هذه القبائل لها من الخصائص اللهجية في إبدال بعض أصوات العربية ما يخالف المستوى المشترك الذي نلاحظه في مستوى لغة القرآن الكريم والشعر العربي مثلاً، ومع ذلك لا ننفي عنها الفصاحة^(١).

ولكن متى بدأ وسم العربية بلغة الضاد إذا كان من المستبعد أن تكون كذلك في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم؟ بدأ للباحث بعد هذا العرض المستفيض أن تسمية العربية بلغة الضاد على وجه التداول بدأ في القرن الرابع الهجري، وأول أثر وقعنا عليه كان بيت المتنبي^(٢):

وهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

وأغلب الظن أنه شاع بعد هذا الأثر تداول العربية بلغة الضاد، ويقوّي من ذلك أن الشعر وسيلة من وسائل الإعلان في المجتمع آنذاك، لا سيما إن كان الشاعر من أساطين الشعراء وفحولهم كأبي الطيب، إذ يلقي شعره عناية العلماء لا سيما اللغويين منهم^(٣).

(١) انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، الخصائص، ج ٢/ص ١٢، ١٣ وانظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (٢٧٦هـ/٨٩٠م)، غريب الحديث، وضع فهارمه، نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط ١/١٩٨٤ ج ٢/١٢٣.

(٢) انظر ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ/١٠٠٢م)، ج ١/٨٩١ "الفسر" شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي (ت ٣٥٤هـ/٩٦٥م)، وانظر: شرح أبي البقاء العكبري على ديوان المتنبي (ت ٦٠٦هـ/١٢١٠م) التبيان في شرح الديوان ج ١ ص ٣٢٣.

(٣) مثل ابن جني والعكبري وغيرهم من اللغويين الذين شرحوا ديوانه ووقفوا على البيت المذكور كما مر بنا آنفاً.

وليس لتسمية العربية بلغة الضاد أي وجهة عصبية، ولا للرد على الشعبية، لأن ثمة أصواتاً أخرى غير الضاد كالظاء مثلاً للعرب خاصة كما نصّ الخليل، يقول ابن منظور: (١)

"روى الليث عن الخليل قال: الظاء حرف عربي خُصَّ به لسان العرب لا يشاركون فيه أحد من سائر الأمم... قال ابن جني: ولا يوجد في كلام النبط، فإذا وقعت فيه قلبوها طاء."

وهذا معروف قبل أثر المتنبي السابق، ومع ذلك لم تعرف العربية بلغة الظاء. وهذا يؤكد أن للضاد خصوصية نطقية جعلتهم يتباهون بإجادتها صفة ومخرجاً، ناهيك عن اختصاص العربية بها، وإن شاركتها بعض اللغات الأعجمية.

ومن الجدير بالذكر أن هذه التسمية شاعت عند اللغويين لا عند المحدثين، لأن اللغويين معنيون أكثر من غيرهم بمخارج الأصوات وصفاتها، وأغلب الظن أنهم اختلط عليهم ما نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فما رواه المحدثون (أصحاب الغريب) "أنا أفصح العرب، (أعربكم، أعرب العرب) بيد أنني من قریش..." — بما ألفوه بعد قول المتنبي وشيوعه من معرفة العربية بلغة الضاد. وقوى من ذلك جواز رواية الحديث بالمعنى.

وأرى أن الحذقة اللغوية أولاً، وما لصوت الضاد من تميز نطقي، جعلتهم يتصرفون، فاستخدموا لفظة "من نطق بالضاد" بدلاً من لفظة "العرب".

(١) انظر ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن منظور بن محمد الأنصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١٢م)، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ٣ باب الظاء ٢٤٥/٨.